مجتمع الهمذاني

من خلال مقاماته

بحث يحلل المقامات ويستكشف من
ورائها صورة المجتمع الذي أنشئت فيه

— ٥ —

٤ ـ الكُدْيَـة

الكدية مظهر من مظاهر الفقر في المجتمع وعدم التكافل الاجتماعي بين الناس . وربما تكون في بعض الأحيان مظهراً من مظاهر العجز أو الكسل الفرديّ ، وهي قديمة في التاريخ ؛ وجدت منذ وجد العجز والفقر إلى جانب القوة والغنى مهما يختلف تأويل ذلك :

متى ما ير الناس الفقير وجارُه غني يقولوا عاجز وجليد !

الكدية في التاريخ : وقد كانت الكدية معروفة منذ القديم ، كما يبدو أنها كانت معروفة عند العرب قبل الإسلام حتى نهى عنها الإسلام وحاربها النبي ﷺ وحض على العمل والكسب ، وشاعت أقواله في ذلك ، ومنها « لأن يأتي أحدكم الجبل فيأتي بحزمة من الحطب فيبيعها خير له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه » ومنها « اليد العليا خير من السفلى » ويرجح أن تكثر الكدية وتنتشر حيث يعمّ الفقر ، وتقل حيث يسود الرخاء . وقد مرّ بنا الحديث عن سوء الوضع الاقتصادي أيام الهمذاني ، وهو في مقاماته إنما يطلعنا على سبيل المكدين في حرفتهم ، ويكشف لنا أساليب

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

خداعهم ... بل إنه يُعنى بالكدية عناية خاصة حتى كانت المحور الأساسي الذي تدور حوله معظم المقامات .

وليس مانقله إلينا الهمذاني من أخبارهم ، على كثرته وطرافته ، غريباً أو بعيداً عما عرف في ذلك العصر ؛ فلقد ذكروا أن بعض الناس كانوا يحتالون للسلب بحيل شتى ، وأن من الحيل التي يلجأ إليها بعض المكدين لجمع المال تظاهرهم بالغزو والجهاد فيجمعون المال لتجهيز أنفسهم أو فك أسراهم !! وكثير من هؤلاء كانوا يركبون الدواب ويطوفون البلاد كالغزاة ليوهموا الناس بصدقهم ، بل إن في أخبار التاريخ أن جيشاً من عشرين ألفاً خرج من خراسان سنة ٣٥٥ هـ بحجة الغزو ثم ظفر بأموال الدولة وانقلب إلى جيش للسلب والنهب (١) .

ولعل من أطرف ماوصف به المكدون وأساليبهم تلك القصيدة الطويلة الرائعة المعروفة بالقصيدة الساسانية والتي نظمها أبو دلف الخزرجي (٢) ومطلعها :

جفون دمعها يجري لطول الصدّ والهجرِ (٣)

وقد وصف فيها الغربة والتنقل ، وذكر حيلَ المكدّين من كتابة التعاويذ والتآمر مع القصّاصين الذين يتصدّرون حلقات القصص ويأمرون المستمعين باعطاء الفقراء ثم يقاسمونهم ماجمعوا بعد انفضاض الحلقة ، كما ذكر كثيراً من أساليب المكر والخداع كتصفير الوجه أو تجريحه ، أو إيهام الناس بقطع اللسان ، أو ارتداء زي الرهبان أو الحجاج ، أو الاحتيال بالتنجيم

---

(١) الحضارة الإسلامية ٢ : ٦٦ .

(٢) هو مسعر بن مهلهل . انظر ترجمته وأخباره في يتيمة الدهر ٣ : ٣٥٦ (ط محي الدين عبد الحميد) .

(٣) انظر القصيدة في اليتيمة ٣ : ٣٥٨ .

شبكة الألوكة www.alukah.net
الهدية من مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

أو باصطحاب عدد من الأطفال عليهم آثار الجوع والعري . . أو بترقيص القردة أو الدببة ... ، وهي قصيدة جامعة حتى إن آدم متز يقول « إنها وثيقة اجتماعية عن القرن الرابع . »(١)

الكدية في المقامات : أما الهمذاني فيحدثنا عن الكدية حديثاً طريفاً يبتكر له الأساليب ويعدّد المذاهب ، فلا يترك نوعاً من الكدية إلا يأتينا بنموذج منه ويمثله لنا وكأنه أستاذ فيه .

ومما يجلب النظر في أساليب المكدين التي عرضها علينـــا أنها ليست غريبة عنا ولا عن عصرنا ، وأنها هي نفسها الأساليب المتبعة عند المكدين المعاصرين وكأنهم توارثوها جيلاً عن جيل .

فمن المكدين من كان يجول في الأسواق رافعاً صوته في الإنشاد :

ويلي على كفّين من سويق ... أو شحمة تضرب بالدقيق
أو قصعة تملأ من خرديق ... يفشأ عنـــا سطوات الريق
يقيمنا عن منهج الطريق ... يارازق الثروة بعد الضيق (٢)

أو يستجدي قائلاً :

ياقوم قد أثقل دَيني ظهري ... وطالبتني طَلّتي (٣) بالمَهر
أصبحت من بعد غنى ووفر ... ساكن قفر وحليف فقر
ياقوم هل بينكم من حرّ ... يعينني على صروف الدهر (٤)

---

(١) الحضارة الاسلامية ٢ : ١٠٧ .
(٢) المقامة الازاذية : ١٥ .
(٣) الطلّة : الزوجة .
(٤) المقامة المكفوفية : ٨٤ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

فإذا نال ماطلب من أحد المحسنين أتبعه بالدعاء والشكر :

يامن عناني بجميـــل برّه أفضى إلى الله بحسن سرّه
واستحفظ الله جميل ستره ان كان لاطاقة لي بشكره
فالله ربي من وراء أجره (١)

ومن المكدين من يتظاهر بالمرض ويمثل دور المصاب المبتلى فيضمد ساقه أو يشدّ يده إلى عنقه أو يعصب رأسه أو يعمد إلى الارتجاف كلما شعر بدنوّ أحد المارّة منه . . ومنهم من كان يتظاهر بالعمى كالذي حدثنا عنه الهمذاني في المقامة المكفوفية فهو « أعمى مكفوف » ولكنه سرعان مايعرف الدينار من لمسه مما جعل ابن هشام يشك في أمره ويقول « وتبعته فعلمت أنه متعامٍ لسرعة ماعرف الدينار ... ثم فتح عن توأمتي لوز (٢) . . »

ومنهم من كان يكتب حاجته على أوراق يوزعها على الناس ، شأن بعضهم اليوم ، وقد رأى ابن هشام من هؤلاء في أسواق العراق وقال لأحدهم « ألم أرك بالعراق تطوف في الأسواق مكدّيا بالأوراق ؟ (٣) » .

وقد تكون للمكدّ طريقة أخرى في سؤاله الناس وذلك بأن يغتنم الفرصة السانحة ويأتي في الوقت الملائم ، وللنفس أحوال تحب أن تصنع فيها الخير كأن يكون الإنسان مقدماً على سفر فإذا هو قبل أن تتحرك مطيّته أمام سائل يتضرع داعياً له بالأمن والسلامة على حين أنه منصرف إلى التفكير في أخطار الطريق ومشاقّ السفر .

---

(١) المقامة الازاذية : ١٦ .
(٢) المقامة المكفوفية : ٨٦ .
(٣) المقامة البلخية : ٢١ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وكثيراً مانشاهد اليوم أمثال هذه الفئة من المكدّين يقفون في المحطات أو مراكز انطلاق القطر والسيارات يتصيّدون المسافرين حاقّين بهم داعين لهم بالأمن والسلامة ، ومن هؤلاء ذلك الذي حدثنا عنه ابن هشام في المقامة البلخية حيث قال : « ولمّا حنى الفراق بنا قوسه أو كاد دخل عليّ شاب في زيّ ملء العين .. ولقيني من البرّ في الثناء ، ثم قال : أظعناً تريد ؟ ففلت : اي والله . فقال : أخصب رائدك ولا ضلّ قائدك . فأين تريد ؟ قلت : الوطن . فقال : بُلّغت الوطن وقضيت الوطر ..، قال : إذا أرجعك الله سالماً من هذا الطريق فاستصحب لي عدوّاً في بردة صديق من نجار الصُفر يدعو الى الكفر ويرقص على الظفر ، كدارة العين يحطّ ثقل الدين وينافق بوجهين . قال ابن هشام : فعلمت أنه يلتمس ديناراً فقلت : لك ذلك نقداً ومثله وعدا ... ، (١)

ومن الأحوال التي يحبب فيها الخير الى النفوس أن يكون الانسان في جوّ ديني تسوده روح البذل والتعاون ، أو أن يكون الإنسان منصرفاً إلى تذكّر الآخرة والزهد في الدنيا ، راغباً في الأجر والثواب ... فهو في مثل هذه الأحوال أقرب الى الاستجابة وأسرع الى السخاء . . وقد عرف المكدون ذلك فرابطوا عند أبواب المساجد أو دخلوا على الناس في المساجد فوعظوهم وذكّروهم حتى امتلأت قلوبهم بحب الآخرة ونعيمها والزهد في الدنيا ومباهجها ثم عرضوا على الناس بؤسهم وفقرهم وطلبوا منهم عونهم ومساعدتهم ؛ إنهم كثيراً مابدأوا واعظين مذكّرين وانتهوا سائلين مستجدين !

والطريف أن بعض هؤلاء الماكرين لايدعون مجالاً يسمح للمصلي بالانصراف، فهم يحرجون الناس ويشدّونهم بأغلظ الأيمان لئلا يخرجوا من المسجد قبل

(١) المقامة البلخية : ١٨ .

شبكة الألوكة www.alukah.net
تنمية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

سماع الشكوى ، وذلك على نحو ماحدث لابن هشام في أحد مساجد أصفهان حين فرغ الإمام من ركعتيه « وأقبل على التشهد بلحييه ومال الى التحية بأخدعيه ، وقلت : قد سهّل الله المخرج وقرب الفرج . قام رجل فقال : من كان منكم يحب الصحابة والجماعة فليعرني سمعه ساعة ! قال عيسى بن هشام : فلزمت أرضي صيانة لعرضي . فقال : حقيق عليّ ألا أقول غير الحق ولا أشهد إلا بالصدق . قد جئتكم ببشارة من نبيكم لكني لا أؤديها حتى يطهّر الله هذا المسجد من كل نذل يجحد نبوّته . قال عيسى بن هشام : فربطني بالقيود وشدّني بالحبال السود .... »[1] ، وتابع خطابه حتى ملأ جرابه وانصرف .

ومن المكدين من يستجدي بحجة البيع ؛ يزعمون أنهم يبيعون الأحراز والأوراد وكتابات لها عمل السحر ! في تحبيب الأزواج بزوجاتهم أو إخراج الأفاعي من أوكارها ...

ومنهم من يزعم أنه اهتدى بعد ضلال ، وأن عطاء الناس له وتصدّقهم عليه يعصمه من العودة الى ضلاله ، يقول واحد من هؤلاء « ... والآن لما أسفر صبح المشيب وعلتني أبهة الكبر عمدت لإصلاح أمر المعاد بإعداد الزاد فلم أر طريقاً أهدى الى الرشاد مما أنا سالكه . » ثم يقول « ودُفعت إلى مكاره نذرت معها ألاّ أدّخر عن المسلمين منافعها ولا بدّ لي أن أخلع ربقة هذه الأمانة من عنقي إلى أعناقكم وأعرض دوائي هذا في أسواقكم فليشترِ مني من لا يتقزّز من موقف العبيد ولا يأنف من كلمة التوحيد .. »[2]

---

(١) المقامة الأصفهانية : ٥٨ .

(٢) المقامة السجستانية : ٢٦ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وقد يزيد في الخداع فيزعم أنه على أهبة الجهاد والغزو وان الجود عليه إعانة له على الجهاد في سبيل الله فيقول :

أدعو الى الله فهل من مجيب ... الى ذرا رحب ومرعى خصيب
وجنـــة عاليـــة ما تني ... قطوفهـــا دانيـــة ما تغيب
إن أنك آمنت فـكم ليلة ... جحدت ربي وأتيت المريب
ثم هـداني الله وانتاشني ... من ذلّة الكفر اجتهاد المصيب
فظلت أخفي الدين في أسرتي ... وأعبـــد الله بقلب منيب (١)

يا قوم وطئت داركم بعزم لا العشق شاقه ولا الفقر ساقه ، وقد تركت وراء ظهري حدائق وأعنابا .. وخرجت خروج الحية من جحره (٢) والطائر من وكره مؤثراً ديني على دنياي .. فلو دفعتم النار بشرارها ورميتم الروم بحجارها وأعنتموني على غزوها مساعدة وإسعادا ومرافدة وإرفادا ، ولا شطط ؛ فكل على حسب قدرته وقدر طاقته ولا أستكثر البدرة وأقبل الذرّة ولا أردّ التمرة ، ولكل مني سهمان : سهم أذلقه للقاء وسهم أفوقه بالدعاء .. » (٣) ولا عجب في أن يزعم الجهاد والغزو لينال المال فقد رأينا جيشاً بكامله يزعم الغزو في سبيل النهب .

ومن المكدين من يطرق عليك الباب ليلاً ليزعم أنه ابن سبيل مقطوع قال ابن هشام « ولما اغتمض جفن الليل وطرّ شاربه قرع علينا الباب ، فقلنا : من القارع المنتاب ؟ فقال : وفد الليل وبريده ، وفلّ الجوع وطريده وحرّ قاده الضرّ والزمن المرّ ، وضيف وطؤه خفيف وضالته رغيف ، وجار يستعدي

(١) المقامة القزوينية : ٩٢ .
(٢) الحية للمؤنث والمذكر ويفرّقون بينهما بالوصف .
(٣) المقامة القزوينية : ٩٤ .

شبكة الألوكة www.alukah.net
مطبوع مع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

على الجوع . . . [١] » ومثله أيضاً ذلك الذي ذكره ابن هشام في المقامة الناجية . [٢]

ومن المكدين من يلجأ الى استدرار عطف الناس باصطحاب أطفاله معه ، وهو لا يتحدث إليك عن فقره وجوعه لأن عطف الأبوّة أنساه ذلك ، وإنما يحدثك عن جوع أولاده وعريهم ، وأنت إن لم تتألم للرجولة الذليلة أو الأبوّة الملوّعة في شخصه فلا بدّ أن تتألم للطفولة الجائعة العارية في أطفاله ، إنه يكلمك بلسانه ويكلمونك بعيونهم ، فإن لم تتأثر بلهجته فلن تقوى على صدّ نظراتهم الزائغة الضارعة . ولقد عرف ذلك خبثاء المستجدين في عصرنا فراح بعضهم يستتبع أطفالاً يزعم أنهم بنوه وما هم ببنيه !

وقد ورد ذكر هذا النوع من المكدين غير مرة على لسان الهمذاني فهذا واحد « قد احتضن عياله وتأبط أطفاله [٣] » وهذا آخر « يتلوه صغار في أطمار [٤] » ، وربما قدّم المستجدي طفله ودفعه إلى الكلام فان ذلك أدعى للشفقة وأنفذ في القلب ، وقد دفع بعضهم طفله إلى الكلام فقال : « ماعسى أن أقول وهذا الكلام لو لقي الشعر لحلقه أو الصخر لفلقه ، وإن قلباً لم يُنضجه ما قلت لنيء . وقد سمعتم يا قوم مالم تسمعوا قبل اليوم فليُشمل كل منكم بالجود يده وليـــذكر غده واقياً بي ولده . واذكروني أذكركم ، واعطوني أشكركم [٥] » .

---

(١) المقامة الكوفية : ٣٠ .

(٢) المقامة الناجية : ١٩٩ .

(٣) المقامة الازاذية : ١٤ .

(٤) المقامة الجرجانية : ٥١ .

(٥) المقامة النجارية : ٨٩ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ومنهم من يزعم أنه عزيز ذلّ وغنيّ افتقر ؛ « إنكم لن تأنسوا حادثاً ولن تعدموا وارثاً . فبادروا الخير ما أمكن وأحسنوا مع الدهر ماأحسن ، فقد والله طعمنا السكباج وركبنا الهملاج (١) ولبسنا الديباج وافترشنا الحشايا فما راعنا إلا هبوب الدهر بغدره وانقلاب المجن لظهره فعاد الهملاج قطوفاً وانقلب الديباج صوفاً وهلمّ جرّا إلى مانشاهدون من حالي وزيّي (٢) » .

الكدية الجماعية : ومن الطريف أن بعض المكدّين كانوا يؤلفون جماعات يستعنون بها عن الاطفال ويقدّمون واحداً منهم يسيرون وراءه ويقول الجملة فيعيدونها من خلفه . . ؛ والحق أننا نكاد لانعرف هذا النوع من الكدية الجماعية اليوم . إذ نحن نعرف تلازم مكدّيْن أحدهما أعمى مثلاً أو مقعد ، أو تلازم رجل وزوجته ، أو تلازم أسرة بكاملها . أما الكدية الجماعية فقد وصفها لنا الهمذاني في المقامة الساسانية فقال : « فبينا أنا على باب داري إذ طلع علي من بني ساسان كتيبة قد لفّوا رؤوسهم ، وطلوا بالمغرة لبوسهم ، وتأبط كل واحد منهم حجراً يدق به صدره ، وفيهم زعيم لهم يقول وهم يراسلونه ، ويدعو ويجاوبونه .. (٣) » .

وهكذا استعرض لنا الهمذاني أنواع الكدية وأساليب المكدين في عصره ، وقدّم لنا صوراً مختلفة عن تلك الطبقة الفقيرة التي كانت تحتال للقوت ، والتي كانت في عددها متناسبة مع ماذكر من فساد الحال وسوء الوضع في تلك الفترة ، وهي فترة قيل إنه مامرّ على الدولة أسوأ منها ، وحسبنا منها أنها بيعت فيها الدور والعقارات بما يمسك الرمق من الخبز .

---

(١) الهملاج من البراذين الحسن الاهتياد .
(٢) المقامة النجارية : ٨٨ .
(٣) المقامة الساسانية : ٩٧ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

٥ ـ قلّة الأمن وكثرة اللّصوص

السياسة والأمن : رأينا أن الأحوال السياسية لذلك العصر كانت مضطربة وأن أوضاع الحكم فيه كانت غير مستقرة ، ولا شك أن ذلك يؤدي في أغلب الأحيان إلى فقدان الأمن وكثرة الجرائم ، ونحن لانزال إلى اليوم نشاهد الأمثلة الكثيرة على ذلك ؛ إذ لاتلبث أن ترتبك سياسة البلاد وتتزلزل أوضاع الحكم حتى تنشط الجريمة ويكثر الفساد . . . وما يزال الأمر كذلك حتى يعود الأمر إلى نصابه وتتولى زمام الحكم يد قوية تعرف كيف تضرب على يد البغي والفساد . .

في التاريخ : وكان طبيعياً أن تكثر الجرائم وحوادث النهب في تلك الفترة التي اضطربت فيها شؤون البلاد وأصبحت المناصب الكبرى نهباً مرزّعاً بين الأقوياء ؛ لقد كان بين الناس لصوص يسطون على القوافل في الطرقات وعلى البيوت والمخازن في المدن ، كما كان بين السياسيين والحكام لصوص يسطون على المناصب وينهبون الوظائف ، والناس على دين ملوكهم ، وإذا كان عمران بن شاهين يغتصب السلطة في أرض البطيحة ويستقل بها أيام معز الدولة ، فقد كان معز الدولة نفسه مغتصباً للسلطة مستأثراً بها . ومما يدل على مبلغ الاضطراب وفقدان الأمن ذلك التعرّض الوقح لقوافل الحجاج والتجار حتى بات الحاج لايأمن على حياته ، لقد كان الحج في تلك العصور بسبب ما كان في الطرق العربية من المخافات وقلة الأمن غير ممكن أحياناً أو معرّضاً صاحبه للموت أحياناً أخرى [1] ، وفي كتب

(١) الحضارة الإسلامية ٢ : ٥٩ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

التاريخ أن الحج تعطل غير مرة نتيجة لما حلّ بقوافل الحجاج من قتل ونهب .

وليس خبر الجيش الذي زعم الغزو وقام بالسلب ببعيد عنا ، وقد ذكروا عن جنوده « المجاهدين » أنهم كانوا يخرجون ليلاً ومعهم آلاتهم من السيوف والحراب والقسيّ والسهام ويزعمون أنهم يأمرون بالمعروف فيسلبون العامة مناديلهم وعمائمهم وإذا تمكنوا من تفتيشهم وأخذ جميع مامعهم لم يقصّروا في ذلك (١) .

وحسبنا أن نقول إن العراق لم يتمتع بالأمن قط في أثناء القرن الرابع الهجري (٢) وهو مركز الدولة وفيه قوتها ، فما بالك بالمناطق والأقاليم النائية عنه وعن مركز السلطان ؟

في المقامات : يخصّ الهمذاني هؤلاء اللصوص بنصيب من مقاماته ويذكر أنواعاً منهم متعددة ؛ فيحدثنا عمن يتعرض منهم للمسافرين في الطرقات كذلك الذي خرج على ابن هشام وصحبه في طريق حمص « ثم اندمج بهم وخدمهم وعمد إلى قوس أحدنا فأوتره وفوّق سهماً فرماه في السماء وأتبعه بآخر فشقه في الهواء . وقال : سأريكم نوعاً آخر ، ثم عمد إلى كنانتي فأخذها ، وإلى فرسي فعلاه ورمى أحدنا بسهم أثبته في صدره ، وآخر طيّره من ظهره . فقلت ويحك ما تصنع ؟ قال : اسكت يا لكع ، والله ليشدنّ كل منكم يد رفيقه أو لأغصنّه بريقه ... (٣) » ثم نزع عنهم ثيابهم

(١) الحضارة الإسلامية : ٦٦ .
(٢) المرجع السابق : ٢٩٤ .
(٣) المقامة الأسدية : ٣٧ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وكاد يذهب بها لولا أن عاجله بعضهم بطعنة قضت عليه ، ومثله الذي خرج على ابن هشام وصاحبه الاسكندري وهما عائدان من الموصل فملك عليهما القافلة وأخذ منهما الرحل والراحلة ... [١] » .

وأما اللصوص الذين يسطون على البيوت والمحال التجارية ، والنشالون الذين يسرقون من الناس في الطرقات فقد تحدث الهمذاني عنهم طويلاً في المقامة الرصافية حيث قال على لسان ابن هشام : « خرجت من الرصافة أريد دار الخلافة وحمّارة القيظ تغلي بنار الغيظ ، فلما نصفت الطريق اشتد الحرّ وأعوزني الصبر ، فملت إلى مسجد قد أخذ من كل حسن سرّه وفيه قوم يتأملون سقوفه ويتذاكرون وقوفه ، وأداهم عجز الحديث إلى ذكر اللصوص وحيلهم والطرّارين وعملهم ... [٢] » ثم يتابع ذكر أسمائهم وتعداد أنواعهم حتى زاد على السبعين نوعاً ، مما جعل هذه المقامة مصدراً « دسماً » للصوص والنشالين أو لمن يريد أن يعرف شرّهم ويدفع عنه أذاهم ، كما جعلها ، من ناحية ثانية ، صورة من صور الأخلاق الفاسدة والبؤس المنتشر ...

(يتبع) الدكتور عادل المبارك

(١) المقامة الموصلية : ١٠٣ .

(٢) المقامة الرصافية : ١٦٥ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net